صورة المرأة في العهد الزياني

د. نعيمة بوكرديمي،
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف.

ملخص:

لم يقتصر دور المرأة في العهد الزياني على الجانب الاجتماعي والمتمثل في القيام بمختلف أعباء الأسرة، علاوة على الأعمال المنزلية، بل تعداه، حيث أصبح للمرأة في المجتمع الزياني بصمة في مختلف جواب الحياة السياسية، والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية، فقد أشارت المصادر على دورها البارز في تدبير شؤون الحكم وعقدها لاتفاقيات الصلح السلمية كسوط النساء أم يغمراسن، وفي الميدان العسكري من خلال تشجيعها ومناصرتها لجيشها ضدّ أعدائها في المعارك، وقيامها بالأعمال الفلاحية التي تخص الرجل كسقي الأرض وحرثها وزرعها، ومساهمتها في الصناعة وحتى ممارستها للتجارة داخل وخارج البيت، وتفعيلها للجانب الثقافي والديني وذلك من خلال إسهامها في عملية التدريس والوعظ والإرشاد الذي كان تقوم به بعض النساء الصالحات المؤمنات.

الكلمات المفتاحية:

المرأة، الزيانيين، الأدوار، السياسي، العسكري.

Résumé :

La femme durant l’époque Zianide

Durant l’époque Zianide, la femme a joué un role primordial dans tous les domaines. Sa tache a dépassé son statut en tant que femme au foyer, en prouvant son existence dans les différents aspects de la vie politique, économique, sociale, culturelle et religieuse. Certaines sources ont démontré son rôle le plus remarquable dans divers champs, en citant : sa participation en menant les accords de gouvernance et de contrats pour la conciliation pacifique ainsi que ; Yagmurasn, et dans le domaine militaire, en encourageant et en plaidant pour son armée contre ses ennemis dans les combats, et sans nier sa présence dans des travaux agricoles ; en plus, sa contribution à l'industrie et même en exerçant le commerce à l'intérieur et à l'extérieur de la maison. Et enfin, sa participation au processus d’enseignement, de sensibilisation, et d’orientation pour activer les aspects culturels et religieux.

Mots clés : la femme, Les Zianide, Le statut, Le role, Le politique, Le militaire.

تمهيد:

شكّلتالمرأةالزيانية في الفترة التاريخية الممتدة من(633- 962ه/ 1235- 1554م) عنصرا فاعلا له مكانته وأدواره في مختلف النشاطات السياسية،والعسكرية، والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية، والدينية، ولذا انكبّ عدد من الباحثين والدارسين على دراسة وضعيتها وتقصّي أخبارها، إذا اعتبرت قضيّتها من اهم القضايا الجديرة بالدّراسة والبحثلإماطة اللّثام عن مكانتها ودورها في المجتمع الزياني.

أولا مكانة المرأة الزيانية:

كانت المرأة الزيانية أكثر ظهورا في مجال الحياة العامة(بلعربي، خ. 2011: 299)، وذلك نظراً لتمتّعها بنوع من الحرّية(عبد الشكور، ن. 2015: 140)، فبالرّغم من القيود الاجتماعية التي فرضتها التقاليد على المرأة الزيانية، والتي ظلّت من جرّائها محرومة من حقوقها الطبيعية، إلّا في حالاتٍ نادرةٍ خاصّة بعد أن تصبح البنت في سن البلوغ كحقّ التعليم على سبيل المثال الذي دعى إليه الدّين الإسلامي بحكم أن طلب العلم فريضة على الرّجل والمرأة(فيلالي، ع. ج2، 2002: 355)، إلا أنّها استطاعت أن تضرب درسا في العرض والشرف والطهارة والعفاف والتدين وخير دليل على ذلك ما فعلته خلال الحصار المريني على تلمسان، حيث وقفت موقفا مشرفا حينما طلبت من السلطان أبي زيان محمد الأوّل أن يتخلّص منهنّ خوفا من الفواجع والآلام(الطمار، م. 1984: 181)، كما سجلت المرأة حضورا قويا في المجال السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي واستطاعت أن تضرب أروع الأمثلة في تولي الأمور السياسية، ومناصرة قومها والدفاع في أرضها في أيام الحرب والسّلم وتساهم في إثراء الحياة الاقتصادية بنشاطاتها المختلفة، والحياة الثقافية، والدّينية.(عبد االشكور، ن. 2015: 141)

استطاعت المرأة الزيانية في ظلّ الحرّية التي تمتّعت بها أن تقوم بأدوار هامة، أكّدت من خلالها على قدرتها وكفاءتها في صنع الأحداث في مختلف الميادين ومن تلك الأدوار نذكر:

دور المرأة الزيانية في الميدان السياسي والحربي.

لم تكن المرأة الزيانية أثناء حركة الجهاد داخل بيتها بل كانت تخرج إلى المعارك، ومن ثمّ أسهمت بدور بارز في النشاط السياسي

والدبلوماسي والحربي(حاج جلول، ب. 2015: 8.)، فعندما استولى السلطان أبو زكريا الحفصي على مدينة تلمسان سنة 646هـ/1248م، وأخرج منها يغمراسن، تدخّلت في هذه العملية الخطيرة والدته، السياسية والدبلوماسية الأميرة الزيانية سوط النساء(بلعربي، خ.2011: 299)، وهي أعظم الأميرات في البلاط الزياني،كانت قد عرفت بمواقف سياسية مع جيرانها الحفصين، ولو أن المصادر التي تناولت حياتها السياسية لم تعن بها بنوع من التفصيل (حاج جلول، ب.2015: 12)، وتفاوضت نيابة عن ابنها في عقد صلح بين ابنها يغمراسن وبين أبي زكرياء الحفصي(ابن خلدون،ع. 7، 1278، 81، الزركشي، أ. 1966: 29.)، حيث وبعدما تأكّد للسلطان الزياني من القوّة الحفصية، لم يبق خيارٌ آخر أمامه سوى مبايعته للسلطان الحفصي، وذلك بإرسال وفدٍ دبلوماسيٍ بقيادة والدته "سوط النساء" لتقديم مراسيم البيعة بالنيابة، عنه فقبلها وهو راضٍ. (حاج جلول، ب.2015: 12)

تشير المصادر التاريخية على أن والدة يغمراسن سوط النساء قد اغتنمت وبكل دبلوماسية فرصة تقديم اقتراح للسلطان الحفصي الذي يتضمّن طلب العفو عن ابنها يغمراسن، والسماح له بالعودة إلى تلمسان، فقبل أبو زكرياء الصلح، وأذن ليغمراسن بالعودة إلى إمارته، ولكن بشرط أن يقدّم له مبلغ قدره مائة ألف دينار سنويا.(ابن خلدون، ع.2000: 392، الزركشي، أ. 1966: 29، حاج جلول، ب. 2015:13).

يبدو من خلال الوقائع التاريخية أن الاميرة سوط النساء، اقترحت على ابنها السلطان المهزوم أن يختفي عن أعين جيش الحفصين حتى تهدأ الأنفس، ومن ثمّ كانت الأميرة الأم سوط النساء تنصح ابنها الأمير وتعدّه بطلاً مغواراً وحاكماًدبلوماسيا ذكيا وناجحا أمام أعدائه، وأمام ما يعترض طريقه من مواقف يعرف كيف يتصرّف إزاءها بكل حكمة ونجاح. (عبد الشكور، ن. 2015: 141)، بل ونصّبت نفسها امرأة سياسية دبلوماسية تدافع عن ابنها الأمير وإمارته، وتقبل عثراته، وتجعله يواصل مسيرته في الحكم.(عبد الشكور، ن. 2015: 141)

كما ساهمت المرأة الزيانية مساهمة بارزة خلال معركة إيسلي، ومعركة وادي تلاغالتي دارت بين الزيانين والمرنيين، حيث ظهرت النساء

خلف الرجال وكان للنساء دور كبير في تشجيع المقاتلين على الصمود والرّفع من معنوياتهم وتحريك هممهم.(بلعربي، خ. 2011: 299.)

وهذا بيّنته لنا المصادر التاريخية التي تحدثت عن المعركتين السابقتين حين ذكر عبد الرحمن ابن خلدون قائلاً: "أن النساء برزن سافرات الوجوه على سبيل التشجيع، وبرز النساء سافرات الوجوه على سبيل التحريض، لحسن وسعد بن ورغين يحيين ويعدين ويرغين"(ابن خلدون، ع. ج1: 239.) كما ذكر الناصري قائلاً: "فبرزت النساء في القباب سافرات على سبيل التحريش والتحريض في واقعة تلاغ بين يعقوب بن عبد الرحمن المريني، ويغمراسن بن زيان سنة ست وستين وستمائة(الناصري، أ. ج3، 1954: 26).

وقد ظهرت في هذه المعركة النساء من كلا الجانبين، نساء بني مرين، ونساء بني زيان يحرّضن ويشجعن الجند، وهذا ما أشار إليه ابن أبي زرع الفاسي بقوله: "واصطفّت من الجانبين العيال والقباب"(ابن أبي زرع، ا. 1972: 305.)، وقد أشار إلى ذلك مصدر آخر في قوله "فالتقى الجمعان بوادي تلاغ بالقرب من وادي ملوية، فغيّر كل واحد منهما جيوشه، وميّز كتائبه واصطفت عيالات الفريقين خلف الجيوش في الهوادج، والمراكب والقباب باديات الوجوه عليهن الحلل وثياب الوشي يحرضن الأبطال على الأبطال وأختلط الأمثال بالأمثال، وتمازجت الركاب، وبرزت الفتيات من القباب"(مؤلف مجهول، 2012: 148). كما أشار يحي بن خلدون إلى الدّور الذي لعبته المرأة الزيانية خلال الحصار المريني على تلمسان وخاصّة حثّ الأمراء على القتال. (ابن خلدون، ي. 1980: 212)

كما شاركت المرأة أيضا أثناء هجوم أبو الحسن المريني على تلمسان سنة (737ه/1337م) إلى جانب الرّجال خلف الأسوار، حيث اقتربت احدى النسوة من مقام السلطان أبي الحسن المريني، ورفعت صوتها منادية بني زيان، وأخذت تحثّهم على المقاومة والصّمود. (حاج جلول، ب. 2015: 10).

وهكذا يتّضح لنا ممّا سبق ذكره الدّور الفعّال الذي لعبته المرأة الزيانية في الميدانين السياسي والعسكري باعتبارها عضوًا فعالاً في إثارة الحماس والتشجيع بصوتها وسلوكها وتحريض الجند على الوقوف في وجه العدو والشدائد والأخطار من جهة؛ وتوثيق الصّلات بين الزيانيين

والحفصيين والمرينيين، وذلك عن طريق المصاهرة من جهة أخرى، ومن أولئك النسوة نذكر:

الأميرة الحفصية: وهي زوجة عثمان بن يغمراسن وبفعل الرابطة الزوجية تحوّلت إلى أميرة زيانية، وقد كان من نتائج تلك المصاهرة أن تحسّنت العلاقات الزّيانية الحفصيّة، كما أنه عند غزو المرينيون مدينة تلمسان، استنجد عثمان بن يغمراسن بصهره الحفصي في بجاية لمواجهة القوّات المرينية والقضاء عليها في معركة حصن الرؤوس قرب بسكرة. (حاج جلول، ب. 2015: 14).

الأميرة المغراوية: تشير المصادر على أنّها حفيدة ثابت بن منديل، وهي زوجة سلطان المغرب، وقد ساهمت من خلال هذه الرابطة الزوجية في توطيد العلاقة بين المغربين الأوسط والأقصى. (ابن خلدون، ع.2000: 90، حاج جلول، ب. 2015: 14).

دور المرأة الزيانية في الحياة الاجتماعية:

احتلّت المرأة مكانة كبيرة في الشريعة الإسلامية، فقد منحها الإسلام جميع حقوقها نظرا للدّور الهام الذي تقوم به داخل الأسرة والمجتمع معاً من واجبات تجاه الزوج والأبناء واتجاه المجتمع، ومن ثمّ إزالة الفوارق التي بينها وبين الرجل باعتبار أنّ النساء شقائق الرجال(حاج جلول، ب. 2015: 16).وقد ورد في القرآن الكريم الوصاية بالمرأة في قوله تعالى "وَلَهُنّ مِثْلُ الّذِي عَلَيْهِنّ بِالْمَعْرُوفِ"(سورة البقرة، 228)، كما حثّ الرّجال بحسن معاشرة النساء في قوله تعالى: "وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا" (سورة النساء، الآية:19).

وعندما نتطرق للمجتمع الزياني،نجد أنه كان يتشكل من فئات اجتماعية متنوّعة منها الفئة الحاكمة أو الطبقة الخاصّة، والطبقة الوسطى، والطبقة الأدنى.

وضعية المرأة الزيانية داخل الفئة الحاكمة:

كان البلاط الزياني يتشكّل من نظام الحريم، الذي بدوره يتألّف من زوجة وحتّى من أربعة زوجات حسب الشريعة الإسلامية، بالإضافة إلى العبيد، والجواري والبيض والسود. (حاج جلول، ب. 2015: 17)، وكان

حريم السلطان يتكوّن من نوعين من النساء الحرائر والإيماء أو الجواري القائمات على الخدمة.

المرأة الحرة: وهي المرأة التي لم تؤسر طيلة حياتها، ولم تختطف من تجّار الرقيق، ولم يتحصّل عليها السلطان أو الأمير بالمال أو الهدايا، إضافة إلى أنّها المرأة التي تتزوج بعقد شرعي، حيث كانت المرأة في هذا الوسط ثرية على حساب الرعية، فقد كان يمنح لها ولي أمرها كل الخيرات والثروات التي يجمعها عكس المرأة في الفئة الأدنى، التي تزداد فقرا.(حاج جلول، ب. 2015:18)، كما لمتكن تقوم بأشغال المنزل، وقد أورد البرزلي حادثة عن أحد الشيوخ أنّ امرأة أتته تشكوه من وجع يديها من العجين، فأمر زوجها أن يسخر لها خادمًا يخدمها.

إن ما نستخلصه من وراء وقوفنا عند هذه الحادثة، أن المرأة ككائن بشري واجتماعي كان لها حقوق تحفظ كرامتها ومنزلتها داخل المجتمع الزياني، غير أن الواقع الذي حظيت به المرأة الزيانية الحرّة، لم تحظ به مثليها المرأة البدوية، والدليل على ذلك فقد جاءت امرأة بدوية تشكو من شدة خدمتها، فأمرت على أن تصبر، وتبقى مع زوجها لأن هذه الخدمة من اختصاصها، هذا وإن دلّ على شيء فإنّما يدل على أنّ المرأة الحضرية كان أكثر حظا وتحررا من المرأة البدوية. (عبد الشكور، ب. 2015: 147).

أمّا فيما يخصّ زواجها، فقد كانت لها الحرية الكاملة في اختيار شريك حياتها، وذلك إذا كانت بالغة عازبة، ما عليها إلا أن تصبر وتنتظر الزوج المناسب لها. (حاج جلول، ب. 2015: 19).

ومن بين النساء اللّواتي ينتمين إلى هذه الفئة نذكر:

الأميرة سوط النساء: هي والدة السلطان يغمراسن بن زيان والدبلوماسية الشجاعة التي ترأّست الوفد الزياني لإقامة الصلح مع السلطان الحفصي أبي زكريا بهدف إرجاع ابنها إلى عرشه بإمارة تلمسان.(ابن خلدون، ع. 2000: 392)

حنينة الزيانية: هي ابنة سوط النساء وأخت يغمراسن بن زيان.(ابن خلدون، ع.2000: 114).

شمسة: هي بنت الفقيه مؤمن الزواغي، من العائلة الحاكمة تلقب بالحرة، هي لا تنتمي إلى بني عبد الواد، ولكنها تقرب إليهم بالنسب،

حسب المستشرق بروسلار، هذا ما أهّلها بان تكون ضمن بنات العائلة الحاكمة. (عبد الشكور، ن. 2015: 154).

العالية الحرة: هي بنت الأمير عمر بن السلطان أبو حمو حفيدة السلطان أبو حمو الثاني. (عبد الشكور، ن. 2015: 154، حاج جلول، ب. 2015: 21).

تاحضريت الزيانية: هي بنت السلطان أبي حمو اسمها بربري، عاشت في أيام حكم سبعة من اخواتها، وتوفيت سنة 819ه/1416 عن عمر لا يقل عن 30 سنة.(عبد الشكور، **ن. 2015**: 154، حاج جلول، ب. 2015: 21).

فاطمة: هي بنت الشيخ عبد الله بن خالد، توفيت (سنة/1493) دفنت بمقبرة سلاطين بني زيان. (عبد الشكور، ن. 2015: 154، حاج جلول، ب. 2015: 21).

ملوكة: هي زوجة السلطان أبي عبد الله محمد الذي تولّى الحكم سنة (866ه/1462) وبنت الشيخ عثمان بن مشعل، توفيت سنة (867ه/1462م). (حاج جلول، ب. 2015: 21).

المرأة الأمة أو ما يعرف بالجارية: وهي التي تنتمي إلى فئة العبيد والرقيق، كانوا موجودين بنسبة كبيرة بالمغرب الأوسط، وقد ارتبطوا بالطبقة الأولى أي الحاكمة أو الخاصّة نظرا لملازمتهم لها.

والأمة أو الجارية هي المرأة المملوكة، كما تعرف بالوصيفة والخادمة والسرية، كانتتباع وتشترى في سوق العبيد أو النخاسة.(حاج جلول، ب. 2015، ص 22)

وتتوسط الفئتين الطبقة الوسطى، وهي تتكوّن من أهل العلم والفكر وكبار التجار، وكانت حياة المرأة فيها لا تختلف كثيرا عن حياة المرأة بالفئة الخاصة.

وبحكم أنّ المرأة هي الرّكيزة الأساسية في بناء الأسرة والمجتمع، كان عليها أن تأخذ حجمها الطبيعي،ليس فقط كزوجة،أوأم لخليفة أو لأمير، أو امرأة سياسية تتدخّل في شؤون الدّولة، بل جعلت عملها ينحصر داخل البيت ويفرض عليها القيام بالواجبات المنزلية كخدمة الزوج وإنجاب وتربية الأبناء ورعايتهم، وخاصّة عند غياب الزوج أو وفاته،(عبد الشكور،

ن. 2015: 141)، وهذه المسؤولية أبرزتها لنا المصادر في ترجمتها للعلماء فجاء في ترجمة الفقيه الأصولي أحمد بن زكري (ت 899هـ/1494) أنّ والدته قامت بحضانته وتربيته منذ صغره، بعد وفاة والده، كما جعلته يشتغل بمحلّ الحياكة من أجل أن يعوّل على نفسه(ابن القاضي المكناسي، ج1، 90).

كما حظيابن مرزوق بالتربية في حجر جدته بعد وفاة والده عام 681هـ/1282)، وبعد موت جدّته، قامت أخته زينب بكفالته، بحيث بقي معها إلى أن خرج أثناء حصار تلمسان الذي دام تسع سنين (ابن مرزوق، أ ، 2008: 194).

وقد تعدّت أعمال المرأة إلى اختصاصات الرجل، حيث كانت تقوم بحمل الماء من سقي على ظهورهن بالقرب من الأماكن البعيدة، بحيث كنّ يخرجن من الصّباح الباكر ولا يعدن إلا بعد الزوال(ابن صعد الأنصاري، ب ن: 28)

كما علمت المرأة لكسب محبّة زوجها ومعاونته فيما يعانيه من شذف العيش بالعمل داخل المنزل وخارجه وذلك بممارستها لبعض الحرف البسيطة، كحرفة النسيج بمختلف أنواعه كنساء بني سنوسن اللّواتي اشتهرن بصناعة الحصير. (حاج علي، ب. 2015: 31)

وقد قامت المرأة البدوية بنسج الخيم من الوبر، والصّوف كمسكن للقبائل العربية باعتبارهاتعتمد على الرحلة الموسمية (حساني، م. 1985: 244)، كما كانت هناك منهن من تشتري الصّوف وتقوم بغسله ومشطه وغزله ونسجه حسب ما ورد في نوازل المازوني. (المازوني، ن. 2012: 66)

وقد تعدّى دور المرأة المجال الأسري، ليشمل المجتمع، ولعلّ أبرز مجال تؤثر فيه هو مجال الإصلاح، فعلى عاتقها تتمّ عملية التنشئة الصحيحة، وبذلك يكون صلاح الفرد والمجتمع مرتبطاً ومرهوناً بها. (عبد الشكور، ن، 2015: 142)

كما كانت المرأة الزيانية حاضرة في أعمال التكافل والتضامن الاجتماعي كمبدأ أساسي وطريقة لتقرّبها من اللّه ونيل رضوانه، وتجسيدا لذلك أقبلت المرأة الزيانية على إنفاقأموالها في وجوه البر والإحسان لإعانة ذوي الحاجات، وتسهم في تنمية المجتمع كالتضامن مع منكوبي

الكوارث الطبيعية، والعائلات المعوزّة كتزويج اليتيمة، أو إعارة ثيابها وحليّها لعروس مقبلة على الزواج.(ابن حزم، ج1. 1987: 165)

دور المرأة الزيانية في الحياة الاقتصادية:

بالرّغم من أنّ دور المرأة الزيانية ارتبط بالبيت والأعمال المنزلية، إلّا أن هناك بعض النساء منهنّ كانت تخرج عن نطاق البيت بمشاركتها للرّجل في الأعمال الزّراعية، كما كانت تمارس التجارة من بيع وشراء، ومن بين نشاطات الاقتصادية التي مارستها المرأة الزيانية في الميدان الاقتصادي نذكر:

3- 1 النشاط الفلاحي:حيث قامت بعض النسوة، وخاصّة البدويات بأعمال تدخل ضمن اختصاصات الرّجل، كمشاركتها له في أشغال الحقل، حيث قامت المرأة الزيانية بعملية السقي وجلب الحطب، وأيضا حرث الأرض، وإقلاع الأشجار، والمساهمة في بناء الدور وحصاد الزرع، كما كانتتقوم برعي الماشية(حساني، م. ج2، 36.)،وتربية الدواجن وما يختص بها من علف وسقيها وحلبها واستخراج الزبد من لبنها، إضافة إلى جني الزيتون، وقطف العنب وغيرها من المحاصيل الزراعية (حاج علي، ب. 2015: 20.)، وحول ذلك يقول ابن خلدون: "أن الفلح من النبات والزرع والشجر بالقيام عليه واعداده لاستخراج ثمره أو أن يكون من الحيوان الداجن لاستخراج فضوله المنصرفة في منافعهم كاللبن من الأنعام". (ابن خلدون، ع. 2001: 479).

وعليه نستنتج بأنّ المرأة الزيانية، استطاعت في النشاط الفلاحي أن تنهض بتنمية اقتصاد العائلة سواء بعملها المباشر كزوجة أو بتوكيلها لمن يقوم بذلك كالزّوج مثلا، أمّا بالنسبة للمرأة البدوية فقد كان تركيزها كبيراً في هذا المجال مقارنة بالمرأة الحضرية، بحكم طبيعة البادية التي تقتضي خروج المرأة.

3- 2 النشاط الحرفي: يشير الحسن الوزّان إلى وجود مناطق عديدة اختصّت بالنشاط الحرفي في العهد الزياني وخاصّة الصناعة النسيجية ومن ذلك مدينة وهران التي ذكر بأنّ معظم سكانها من الصنّاع والحرفيين، وأيضا مدينة مستغانم التي كان بها صنّاع كثيرون ينسجون الأقمشة(الوزان، ج، 31، 33، 35.) كما عُرف أهل برشك بحياكة الأقمشة، وحتى مليانة ومازونة فمعظم سكّانها اشتغلوا بالنسيج (الوزان،

ج1، 1983: 32.)والظّاهر أنّ مهنة الغزل والنسيج هي من أكثر المهن ممارسة عند المرأة، وذلك لطبيعة جلوسيها لفترة طويلة في بيتها من جهة، وللإنفاق على أسرتها من جهة أخرى (عبد الشكور، ن.2015: 143) كما غزلت إلى جانب الصوف، القطن والكتان لاستخدامها في صناعة الملابس إلى جانب صناعة الزرابي والحنابل وغيره(عبد الشكور، ن. 2015: 143.) كما كانت المرأة البدوية تقوم بنسج سكنها، وهي عبارة عن خيام مصنوعة من الوبر والصّوف، وقد تميزت منتوجات المرأة الزيانية بجودة النوع والشكل، وقد اعتمدت نساء بني زيان في صناعتهم النسيجية على عدّة مواد طبيعية نباتية وحيوانية كالصوف والقطن وجلد الحيوانات والمعادن كالذهب والفضة والطرز(حاج علي، ب، 2015: 71.)

كما اشتهرت بصناعة الفخّار التي كانت منتشرة في المدن والأرياف، ولازالت متوارثة لدى قبائل المغرب الأوسط، ومن أهم مصنوعاتها المصنوعات الفخارية كأواني الطهي أو حفظ المؤونة، (بن النية، ر، 2005: 73)، وصناعة الحلفاء التي كانت تستخدم في نسج الحصير لتغطية أرضية المنازل وقاعات الصلاةوالدوم الذي كان يستخدم في صناعة السعف(حمدادو، م 2008، :30.).

وإلى جانب ذلك عرفت المرأة الزيانية الصّناعة الغذائية إلى جانب الأشغال المنزلية وكانت من اختصاص الفئة المتوسطة عكس الفئة الخاصة التي كانت توكل هذه المهنة إلى الجواري، ومن أهم الصناعات الغذائية نذكر المخلّل، وتحضير الحلويات بمختلف أنواعها لمساعدة زوجها أو الحصول على مورد رزق، وتحضير خبز الشعير المعروف عند أهل وهران وصنع اللّبن للاستخراج السمن والجبن وصناعة الكسكس نظرا لتوفر مادة القمح والشعير(الونشريسي، أ، ج4. 1981: 191.).

3- 3 النشاط الحر: شغلت المرأة الزيانية العديدمن المهن الحرّة في حياتها اليومية، وكانت المرأة البسيطة تحظى بالنصيب الأوفر في هذا العمل كالأرملة والمطلّقة،إضافة إلى نساء الفئات الفقيرة التي لم تستطعنالبقاء في المنزل وانتظار من يتصدّق عليهنّ، ومن ضمن الأعمال التي كانت تتناسب مع طبيعة المرأة في المجتمع وتقوم بها نذكر:

المراقبة: ارتبطت هذه المهنة إلى حد كبير بالجوسسة، وكانت تقوم بها بعض النسوة، ولم تكن هذه مهنة تخصّ المسلمات، بل خصّت المراقبة

إلى غيرهن من أهل الذمّة كاليهوديات اللاتي كنّ يمثلن عنصرًا في المجتمع الزياني،لذا ابتكر سلاطين بني زيان هذه المهنة لهنّ، وأيضا لخروجهنّ سفيرات ومشاركتهن في الحياة العامة بكل حرية ودون قيود.(حاج جلول، ب. 2015: 78)

تمثّل عمل المراقبة حسب ما أورده صاحب المسند بتفتيش النساء عند أبواب المدينة فكن يدخلن أيديهن إلى لحومهن حتى لا نتمكن من أخد بعض السلع دون خرائب.(فيلالي عبد العزيز، ف. 2000: 26).

الغسالة: كانت تقوم النساء بغسل الثياب والفرش للأسر الغنية، وقد اختصّت بهذه المهنة الجواري السوداوات خاصّة، وهذا مما أشار إليه الغبريني عند ترجمته للفقيه الصوفي أبي زكريا الموصلي (ت القرن السابع الهجري/13م) الذي كان يقدّم المساعدة لفئة العبيد، ويعاملهم معاملة إنسانية، بحيث أعتقإحدى السوداوات بعد أن شرط أن تقوم بغسل ثياب الفقراء.(الغبريني، ع 1998: 178).

الماشطة: كان هذا الشغل من عمل النساء عامّة، سواء المرأة المسلمة أو الذمية، وتمثل عملها في تجهيز العروس يوم زفافها وذلك بمشط شعرها. (الونشريسي، أ. 1981: 278).

القابلة: صنّفت النساء القوابل ضمن الفئات التي يمارسن الطب الشعبي وقد سمّي ابن خلدون مهنة القوابل بصناعة التوليد، فيقول عنها: "وهي صناعة في استخراج المولود، الآدمى من بطن أمه، مع الرفق في إخراجه من رحمها، وتهيئة أسباب ذلك ثم ما يصلحه بعد الخروج وهي مختصة بالنساء. (ابن خلدون، ع.2001: 217).

وقد أشارت نوازل الفترة إلى وجود النساء القوابل بالمغرب الأوسط الونشريسي وهذا راجع لامحالة إلى قلّة الأطباء المتخصصين في صناعة التوليد، بحيث تعرضت المصادر إلى ذكر طبيب واحد مختص في النوازل ببجاية خلال القرن السابع الهجري وهو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي، وقد كانت القابلات ساهرات في خدمتهن. (حاج جلول، ب. 2015: 61).

الدلالة: هذه المهنة تلعب فيها المرأة دور الوسيط بين البائع والمشتري، حيث اقتصرت على نساء الطبقة الفقيرة، لأن المرأة الزيانية الغنية لا تستطيع الخروج إلى السوق لشراء ما يلزمها،بسبب منعها من قبل زوجها،

ولذلك كان ذلك من عمل الدلالة التي كانت تتردّد على البيوت لبيع لهم الأقمشة وما يلزمهم. (حاج جلول، ب 2015: 81).

التاجرة: اهتمت بعض النساء بهذا النوع من المعاملات من بيع وشراء إلى جانب الرجل حيث كانت تدخلن إلى الأسواق لبيع غزلهنّ في سوق الغزل، ولشراء الخيوط الصوفية والقطنية. (حاج جلول، ب. 2015: 82)، وإلى جانب ذلك فقد اختصّت الجواري بغسل الثياب والفرش للأسر الغنية، وكذلك مهنة الماشطة التي اختصت بها المرأة المسلمة وغير المسلمة، وتتمثل في انشغالهن في تحضير العروس يوم زفافها، ومهنة القابلة التي تدخل ضمن الفئات التي تمارس الطب وصناعة التوليد(ابن خلدون، ع: 455.)والدلالة، وفيها تلعب المرأة دور الوسيط بين البائع والمشتري، وتتمثل في بيع ما يمنحها إياها التاجر من سلع فتقوم بعرضها، وقد اقتصرت هذه المهنة على نساء الطبقة الفقيرة، والتاجرة، حيث شاركت المرأة من خلال هذا الدور في عمليات البيع والشراء إلى جانب الرجل من خلال ارتياد الأسواق لبيع غزلهن، إضافة إلى قيامها بمختلف المعاملات المالية، كالوكالة والرهن وغيرها من المعاملات.

وهكذا لعبت المرأة دورا كبيرا وفعالا في النشاط الاقتصادي، سواء كان ذلك داخل بيتها تمثل في اعداد مختلف المواد الغذائية، وغزل الصوف، وتشكيل الفخار، أو خارج بيتها بالنسبة للمرأة البدوية بالإضافة إلى ممارستها لمختلف المعاملات المالية من بيع وسلع بطريقة مباشرة أو عن طريق وكلائها.

دور المرأة الزيانية في الحياة الثقافية:

نالت بعض نساء بني زيان مكانة علمية ومستوى ثقافي رفيع أهلهن في بعض الأحيان أن ينافسن الرجال في الجد والاجتهاد والتحصيل العلمي، إضافة إلى مقابلتها لأشهر العلماء كالصالحة المؤمنة التلمسانية التي انتقلت إلى عاصمة المرنيين فاس، حيث جالست كبار الفقهاء، وقامت بمناظرتهم في بعض المسائل الفقهية والأخلاق. (ابن قنفذ، أ، ج5: 394.).

أمّا فيما يخص الاجازات العلمية التي كانت تجهيزها المرأة الزيانية للعلماء، فلم نلحظ ذلك من خلال المصادر المعتمدة، إلا اننا ارتأينا أن نذكر أن أحد العلماء الزيانين والمعروف بابن مرزوق الخطيب، قد أخذ إجازة من

احدى عالمات مكة المكرمة المدعوة بفاطمة بنت محمد بن إبراهيم الطبري المكية(المقري، ا. ج5: 394).

وقد وصل الأمر بالمرأة الزيانية إلى أن تكون معلمة سواء للرجال أو النساء ومن أولئك مؤمنة التلمسانية المرأة الصالحة والزاهدة والوارعة التي أعطت درسا في الاخلاق والآداب لابن قنفذ القسنطيني أثناء زيارته لها بفاسي(ابن قنفذ، أ، ج5. 180) كما نجد للمرأة الزيانية، حضور في مجال الشعر والثقافة، حيث وجدت في ذلك ضالتها، فراحت تنظم الشعر، وتعبر على ما يختلج في صدرها حتى أصبح جزء من حياتها اليومية (حاج علي، ب. 2015: 2000).

كما برزت المرأة الزيانية في مجال التصوفأكثر من العلوم الأخرى، ومن الاسباب التي أدت بها إلى اتباع التصوف حركةالزهدالتي شهدتها الفترة، ودور الزوايا، وكثرة رجال الصوفية والعامل السياسي، والمتمثّل في السلطة، إضافة إلى عامل البيع وشراء الاقتصادي وانتشار الآفات الاجتماعية(حاج علي، ب، 2015: 2000).

ومن أبرز المثقفات الزاهدات السيدة زينب التي عاشت في القرن الثامن الهجري/14م، ومن الصالحات المتصوّفة نذكر عائشة بنت الفقيه القاضي أحمد بن الحسن المديوني، وعائشة بنت الأكحل ومؤمنة التلمسانية ولالة مغنية، ولالة ستي وغيرهن كثيرات ممّن ساهمن في علم التصوف والفقه وفنّ الخطابة ونسخ الكتب.(حاج علي، ب، 2015: 201)

خاتمة:

وفي الأخير نقول أن المرأة الزيانية سجلت حضورها في كل جوانب الحياة السياسية، والدبلوماسية، والعسكرية، والحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية والدينية، كما اتّسمت علاقتها بالرجل بالتداخل والتكامل والمنافسة، باعتبار أن النساء شقاق الرجال سواء كانت ذلك على المستوى الأسري داخل الأسرة؛ أو كان ذلك في الخارج على مستوى عملها ونشاطها الخارجي.

كما أدّت المرأة الزيانية بفضل ما تمتّعت به من شجاعة وصبر وحرية وثقافة، وما لعبته من أدوار على مختلف المستويات دورا متميّزا جعلها تحتلّ

مكانة سامية في أوساط المجتمع كما خصّها بها الإسلام من جهة؛ وأن تساهم في بناء الحضارة الزيانية من جهة أخرى.

قائمة المصادر والمراجع:

ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط – 1972.

ابن حزم الاندلسي، 1987، طوق اليمامة في الالفة والألاف، تحقيق: صلاح الدين القاسمي، الدار التونسية للنشر.

ابن خلدون (عبد الرحمن)، 2001 المقدمة، مراجعة سهيل زكار، بيروت – دار الفكر –.

ابن خلدون (عبد الرحمن)، 2000، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر – مراجعة سهيل زكار، بيروت – دار الفكر –.

ابن خلدون (يحي)، 2003، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبد الحميد حاجيات – المكتب الوطني.

ابن أحمر (أبو الوليد إسماعيل)، 2003،روضة النسرين في دولة بني مريني، تحقيق عبد الوهاب بني منظور، الرباط.

ابن القاضي المكناسي، (د ت)، درة الحجال في أسماء الرجال،ج3، تحقيق محمد الاحمدي أبو النور، القاهرة، تونس،مكتبة التراث والمكتبة العتيقة للنشر.

ابن صعد الانصاري، 1986، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين تحقيق يحي بوعزيز – ط1، الجزائر، منشورات (ANEP).

ابن مرزوق (أبو عبد الله)، 2008، المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهدي، ط1، المملكة المغربية،منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن محمد) (دت)،التبيان في ذكر الاولياء والعلماء تلمسان تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر،ديوان المطبوعات الجامعية.

الحسن الوزان (المعروف بليون الافريقي)، 1983، وصف افريقيا، ط2، بيروت، دار الفر، الإسلامي.

الونشريسي (احمد بن يحي)، 1981، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أقل أفريقية والأندلس والمغرب، ج4، إشراف محمد حجى، المملكة المغربية،نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد)، 1949، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة،المكتبة التجارية الكبرى.

المازوني (أبو زكريا يحي)، 2012، الدور المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق قندوز ماحي،ط1، الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف.

مؤلف مجهول، (دت)، زهر البستان في دولة بني زيان، (760 – 794/ 1359 – 1363) عناية محمد باغلي – ط2، الجزائر، شركة الجزائر للنشر والتوزيع.

مارمول (كربخال)، 1988، افريقيا ثلاثة أجزاء، ترجمة من الفرنسية إلى العربية الصفر الثاني محمد حجي وأخرون، الرباط ، المعرفة للنشر والتوزيع.

الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد)، 1954، الاستقصاء للأخبار دول المغرب الأقصى، ج3، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، المملكة المغربية، دار الكتاب.

الطمار (محمد بن عمرو)، 1984، تلمسان عبر العصور ودورها في ساحة وحضارة الجزائر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

بلغربي (خالد)، 2011، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن دراسة تاريخية وحضارية 633هـ – 1235/681 – 1282م)، ط1، الجزائر، موفم للنشر والتوزيع.

عبد الشكور (نبيلة)، 2015، صورة المرأة في الحياة الدبلوماسية في المغرب الإسلامي، مقال ضمن مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، العدد 25.

حاج جلول (بختة)، 2015، المرأة في المجتمع الزياني، مذكرة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة وهران، الجزائر.

فيلالي (عبد العزيز)، 2000، تلمسان في العهد الزياني دار موفم للنشر والتوزيع الجزائر، ج2.

بن النية (رضا)، 2006- 2005، صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين 80هـ- 699م/362هـ- 973م) رسالة ماجستير في التاريخ الوسط جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر.

حمدادو (بن عمر)، 2008، محمد أبو عبد الله المغوفل (828 – 923هـ) دفين وادي شلف والتعريف بتآليفه فلك الكواكب وسلم الرقيا إلى المراتب، مقال ضمن المجلة الجزائر للمخطوطات، وهران عدد 5.